التصوير الجمالي والثقافي في رحلة "على نهر كونهار" لمريم البادي: دراسة نقدية تحليلية

The Aesthetic and Cultural Depiction in Maryam Al-Badi's Travelogue on the Kunhar River: A Critical and Analytical Study

د. عبد المجيد البغدادي

رئيس قسم اللغة العربية

جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد

Abstract

This paper investigates the aesthetic and cultural representation in On the Kunhar River by Maryam Al-Badi, reading the travel narrative as a literary discourse that reconstructs northern Pakistan not merely through geographical description but through poetic space-making and cultural observation. The study argues that the text produces a multilayered representation of place, where mountains, snow, and the river become symbolic and sensory agents shaping the narrator's emotional and reflective experience. Through a close analytical approach supported by textual evidence from the book, the paper explores the poetics of landscape (color, magnitude, sound, and affect) and the cultural depiction of local society (mobility constraints, communal cooperation, and organized tourist transportation). It also highlights the role of myth and legend—particularly the tale associated with Saif al-Muluk—as a cultural narrative that deepens the meaning of the natural scene and enhances its literary impact. The findings demonstrate that Al-Badi's travelogue achieves a double function: aesthetic pleasure through vivid imagery and contemplative tone, and cultural knowledge through documenting everyday practices and social values in a mountainous environment.

Keywords: Travel literature; Aesthetic representation; Cultural representation; Poetics of place; Kunhar River; Northern Pakistan; Travel narrative

الملخص:

تتناول هذه الدراسة التمثيل الجمالي والثقافي في رحلة "على نهر كنهار" لمريم البادي، بوصفها نصًا رحليًا معاصرًا يعيد تشكيل المكان الطبيعي في شمال باكستان داخل خطاب أدبي يمزج بين الرؤية

الوجدانية والمعرفة الثقافية. وتنطلق الدراسة من فرضية أن النص لا يكتفي بوصف المشاهد الطبيعية، بل يؤسس "شعرية مكان" تقوم على اللون والحركة والإيقاع، ويقدم تمثيلًا ثقافيًا للمجتمع المحلي عبر تفاصيل الحياة اليومية وأخلاق التعاون ونظام العيش في البيئة الجبلية. وتعتمد الدراسة منهجًا نقديًا تحليليًا يستند إلى شواهد نصية موثقة من الكتاب، لتحليل آليات بناء المكان والإنسان والرمز والأسطورة في السرد الرحلي. وتخلص إلى أن الرحلة تنجز وظيفة مزدوجة: إنتاج المتعة الجمالية عبر الوصف الفني والتأمل، وإنتاج المعرفة الثقافية عبر رصد العادات والتنظيم الاجتماعي وتحوّل الطبيعة إلى عاملٍ محدِّد للسلوك.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، شعرية المكان، التمثيل الثقافي، شمال باكستان، كنهار، السرد الرحلي.

مقدمة:

يمثل أدب الرحلة فضاءً خصبًا لتداخل الخبرة الحسية بالمعرفة الثقافية، حيث يتجاوز النص وظيفة التسجيل إلى وظيفة بناء المعنى. فالرحلة ليست انتقالًا مكانيًا فحسب، بل هي إعادة كتابة للعالم بلغة الأدب، وفيها يتحول المكان إلى خطاب يعبّر عن علاقة الإنسان بالطبيعة وبالآخر. وفي هذا السياق تأتي رحلة "على نهر كنهار" لمريم البادي بوصفها نصًا رحليًا يتكئ على الحسّ الجمالي في تصوير الطبيعة، وعلى الوعي الثقافي في التقاط تفاصيل الحياة الاجتماعية في شمال باكستان.

وتتحدد إشكالية الدراسة في بحث كيفية تمثل الجمال الطبيعي (الجبال، الثلوج، النهر) في خطاب الرحلة، وكيفية حضور الثقافة المحلية في صور التنظيم الاجتماعي وأخلاق التعاون ونمط العيش الجبلي. كما تقف الدراسة عند حضور الأسطورة داخل السرد بوصفه بعدًا ثقافيًا يثري المشهد ويمنحه بعدًا رمزيًا.

أولًا: شعرية المكان وبناء الجمال الطبيعي

1) الجبال: اللون بوصفه لغة جمالية

تستهل الكاتبة مشهد الجبال في الشمال الباكستاني بوصفٍ يجمع بين العنصر التشكيلي والأثر النفسي، فتبرز قيمة اللون في بناء الصورة: «الجبال هنا سوداء وحمراء وبيضاء تكسوها الثلوج... جبال ممتدة باعثة على الخشوع والهيبة».[1]

إن تعدد الألوان هنا ليس وصفًا حياديًا، بل هو تقنية تشكيلية تُحوِّل الطبيعة إلى لوحة، وتُخرج المكان من مجرد "مرئيٍّ" إلى "مؤثِّرٍ" في الوجدان. فالخشوع والهيبة ليسا نتيجةً خارج النص، بل مكوّنًا داخليًا في بنية الجمال.

2) ضخامة الطبيعة وتحجيم اليوميّ الإنساني: تتقدم الرحلة خطوة أخرى حين تجعل الجبال مركزًا دلاليًا يبتلع تفاصيل الحياة اليومية ويحوّلها إلى هامش، فتقول: "تنظر إليها وترى كأنها تُلفّ الكون كله... ويتضاءل كل شيء حولها: الناس، البيوت، الشوارع".[2]

هذه المقابلة تعكس منظورًا وجوديًا يرتبط بتجربة السفر، حيث يواجه الإنسان الطبيعة الشاهقة فيكتشف هشاشته، وتتعمق دلالة المكان بوصفه "قوة" لا مجرد منظر.

ثانيًا: النهر بوصفه محورًا سرديًا ورمزًا تأمليًا

1) صوت الماء: جمالية السمع بدل جمالية البصر

يمثل نهر كنهار محورًا خاصًا في الرحلة؛ إذ لا تتوقف الكاتبة عند منظر النهر فقط، بل تمنح للصوت وظيفةً مهدئة تفتح أفق التأمل: "جلسنا الوقت نستمع إلى صوت الماء المنهمر بجوارنا".[3]

وهذا يعني أن الجمال لا يُبنى بالعين وحدها، بل بالحواس المتعددة، فتتحول الرحلة إلى تجربة إدراكية شاملة، يكون فيها الصوت جزءًا من بنية المكان.

2) التأمل والعلاج النفسي: الطبيعة كقيمة روحية

تبلغ دلالة النهر ذروتها حين تصفه الكاتبة بوصفه مصدرًا للصفاء النفسي و"علاج الروح"، فتقول: "جلسات تأمل meditation هنا مناسبة جدًا... لحظة علاج انشقاق الروح وصداعها – من خلال التأمل".[4]

وهنا يظهر أحد أهم ملامح الرحلة الحديثة: الطبيعة ليست موضوعًا للوصف فقط، بل تتحول إلى طاقة معنوية تُعيد ترتيب الداخل الإنساني. إن المكان يُعالج، ويُرمّم، ويمنح المعنى.

ثالثًا: التمثيل الثقافي: الإنسان ونظام الحياة في البيئة الجبلية

1) ثقافة الطريق: الطبيعة صانعة السلوك

في مشاهد الطريق تتجلى العلاقة الوثيقة بين البيئة الجبلية وبين النظام الاجتماعي للحياة. تصف الكاتبة سقوط الصخور وانسداد الطرق: "تسقط حجارة أمام السيارة فتسد أمامهم الطريق... وقد يتعطل السير لساعات طويلة".[5]

ثم تصف أثر الثلج بوصفه "جدارًا صلبًا" يوقف الحركة: "يتوقف الطريق أحيانًا أيضًا بسبب الثلوج... تصنع جدارًا صلبًا يلجم حركة السير كاملة".[6]

إن هذين المشهدين يقدمان تمثيلًا ثقافيًا بالغ الدلالة: فالمجتمع الجبلي يتشكل وفق إيقاع الطبيعة، ويُنتج قيمة الصبر بوصفها ضرورة اجتماعية قبل أن تكون فضيلة أخلاقية.

2) التعاون الاجتماعي: الأخلاق بوصفها استجابة للبيئة

لا يمر النص على الصعوبات بوصفها عقبات فحسب، بل يرصد مواقف إنسانية تكشف أخلاق المجتمع في مواجهة الجبل. تقول الكاتبة: "إنهم يحملون عبئًا كبيرًا لتمهيد الطريق أمام عجلات السيارات وإزالة الحجارة العصية".[7]

هذه الصورة تُظهر أن التضامن ليس طارئًا، بل هو منطق حياة؛ لأن البيئة الجبلية القاسية تحتاج إلى روح جماعية وإلى مشاركة يومية في إزالة الخطر.

3) تنظيم النقل السياحي: اقتصاد التفاصيل وعدالة الفرص

يبرز التمثيل الثقافي أيضًا في مشهد تنظيم سيارات الجيب المتجهة نحو بحيرة سيف الملوك، حيث تتشكل ثقافة العمل على مبدأ "تقاسم الفرص": "لا يحق لأي سائق أن يأخذ الدور مرتين... ويسجل الموظف المختص رقم السيارة واسم السائق لتوزيع الأدوار".[8]

هذا المشهد يقدّم بُعدًا ثقافيًا عمليًا: إن الرحلة لا تصف جمال المكان فقط، بل تصف آليات المجتمع في إدارة السياحة والعمل بما يشبه النظام الأخلاقي داخل الاقتصاد المحلي.

رابعًا: الأسطورة في النص: حين يكتمل الجمال بالحكاية

1) سيف الملوك وبدر الجمال: الحكاية بوصفها ذاكرة للمكان

يتحوّل المكان إلى أسطورة حين تبلغ الرحلة بحيرة سيف الملوك؛ فتُدخل الكاتبة القارئ إلى حكاية رمزية مشهورة: "تقول الحكاية... رأى سيف الملوك في منامه فتاة فاتنة الجمال... وأصر أن يسعى وراء أمنيته".[9]

وإدراج الأسطورة يحقق وظيفتين:

وظيفة ثقافية: ربط المكان بالذاكرة الشعبية.

وظيفة جمالية: تحويل المشهد الطبيعي إلى حكاية تفسر فتنة الجمال وتضاعف أثره.

2) الأسطورة بوصفها لغة ثانية للجمال :حين تعجز اللغة الوصفية الواقعية عن احتواء فتنة البحيرة، تأتي الأسطورة لتصبح "لغة ثانية" قادرة على تفسير المدهش. فالأسطورة هنا ليست زائدةً سرديًا، بل هي تأويلٌ ثقافي للجمال، يجعل المكان قابلاً للعيش في المخيلة لا في العين فقط.

خامسًا: تقنيات السرد الرحلي وبناء التجربة

1) التقطيع المشهدي وتحويل الرحلة إلى لوحات

يتكون النص من مشاهد متتابعة: جبال، طريق، نهر، محطة، بحيرة، حكاية. وهذا التقطيع يخلق إيقاعًا سرديًا حيًّا، ويجعل القراءة أقرب إلى مشاهدة لوحات متتالية.

2) حضور الذات الرحلية: المقارنة بوصفها أداة وعي

تؤكد الكاتبة حضور ذاتها حين تقارن بين جبال الشمال الباكستاني وجبال عمان، فتقول: "كنت أقارنها بما عرفته من جبال في عمان... لا جبال في عمان".[10]

وهذا الحضور الذاتي يمنح الرحلة بعدًا حضاريًا؛ لأن الذات هنا لا تلغي الآخر ولا تتعالى عليه، بل تعترف بسلطة الجمال وتعيد تعريف خبرتها السابقة أمام المشهد الجديد.

النتائج:

تتوصل الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. تَبنِي رحلة "على نهر كنهار" شعرية مكان قائمة على اللون والهيبة والأثر النفسي.
2. يتخذ نهر كنهار بعدًا رمزيًا، ويُوظّف كوسيط للتأمل وعلاج الروح.
3. يتمثل المجتمع المحلي عبر مشاهد الصبر والتعاون وتنظيم العمل السياحي.
4. تؤدي الأسطورة وظيفة ثقافية وجمالية، فتجعل المكان ذاكرةً وحكايةً.
5. تعتمد الرحلة تقنيات سردية معاصرة أبرزها التقطيع المشهدي وحضور الذات وتوازن الوصف والتأمل.

خاتمة:

تقدم رحلة "على نهر كنهار" نصًا رحليًا معاصرًا يتجاوز التسجيل إلى الإبداع، ويحوّل شمال باكستان إلى فضاءٍ يزاوج بين الدهشة الجمالية والمعرفة الثقافية. فالجبال ليست منظرًا فقط، بل معنى يوقظ الخشوع؛ والنهر ليس ماءً فقط، بل صوت يرمم الروح؛ والمجتمع ليس خلفيةً للمكان، بل نظام أخلاقي قائم على التعاون والصبر. ومن ثمّ فإن النص يثبت أن أدب الرحلة قادرٌ على إنتاج المعرفة عبر الفن، وإنتاج الفن عبر المعرفة.

الهوامش

1. مريم البادي، على نهر كنهار (دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، 2025)، 16.
2. البادي، على نهر كنهار، 16.
3. البادي، على نهر كنهار، 22.
4. البادي، على نهر كنهار، 22.
5. البادي، على نهر كنهار، 16.
6. البادي، على نهر كنهار، 16.
7. البادي، على نهر كنهار، 30.
8. البادي، على نهر كنهار، 28.
9. البادي، على نهر كنهار، 34.
10. البادي، على نهر كنهار، 16.